﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّفصيلُ بعد الإجمال، والبيانُ بعد الإحكام

بعدَما أجملَ ﷻ نبأَ موسى وفرعونَ في قولِهِ: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾، شرعَ في تفصيلِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، فهو انتقالٌ منَ التَّنبيه المُجمل، والتَّشويقِ العام، إلى التّفصيل والبيان، ومن حُسنِ الافتتاحِ إلى بيانِ غايته ومقصوده.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَلَا﴾: (علو) أصلٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاع[2]، والارتفاعُ: إمّا ماديٌّ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82]، أو معنويٌّ، ككونِ الإنسانِ مَلِكًا مُستبِدًّا مُتسلِّطًا جبّارًا[3]. وقولُهُ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معناهُ: طغَى وجاوزَ الحدَّ في الظُّلمِ، واستكبرَ وافتخرَ بنفسِهِ، ونسيَ العبوديَّة[4].

2) ﴿شِيَعٗا﴾: (شيع) أصلٌ يدلُّ على الانتشارِ والتَّقوية، يقالُ: شاعَ الخبرُ، أي: كَثُرَ وقَوِيَ، واتَّصلَ بكلِّ أحدٍ، فاستوى عِلْمُ النّاسِ بهِ، وشاعَ القومُ: انتشروا وكَثُروا[5]، والشّيعةُ: الجماعةُ المتَّفقونَ على أمرٍ، فيُقوّي بعضُهم بعضًا[6]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾، أي: فِرَقًا يُشيِّعونَهُ في كلِّ ما يريدُهُ مِنَ الشَّرِّ والفسادِ، أو يُشيِّعُ بعضُهم

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 327.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علو).
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 627.
(5) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (شيع).
(6) الخليل، العين: (شيع).

بعضًا في طاعتِهِ، أو أصنافًا في استخدامِهِ، يستعملُ كلَّ صنفٍ في عملٍ ويُسخِّرُهُ فيهِ، مِنْ بناءٍ وحَرْثٍ وحَفْرٍ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأعمالِ الشّاقَّةِ، ومَنْ لم يستعملْهُ ضربَ عليهِ الجِزْيةَ، أو فِرَقًا مختلفةً قد أغرَى بينَهم العداوةَ والبغضاءَ؛ لئلّا تتَّفقَ كلمتُهم[1].

3) ﴿طَآئِفَةً﴾: (طوف) أصلٌ يدلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يَحُفَّ بهِ[2]، ومنهُ: الطّائفُ، وهو الَّذي يدورُ حولَ البيوتِ حافظًا لها، والطَّوافُ بالبيتِ العتيقِ، والطّائفةُ مِنَ النّاسِ: الجماعةُ منهُم، والطّائفةُ مِنَ الشَّيءِ: القِطْعةُ منهُ[3]. والمرادُ بالطّائفةِ في الآيةِ: بنو إسرائيلَ[4].

4) ﴿وَيَسْتَحْيِۦ﴾: يدلُّ الأصل (حيي) على الحياة الَّتي هي ضِدُّ الموتِ[5]، والاستحياءُ: الاستبقاءُ، يقالُ: استحياهُ، إذا استبقاهُ[6]. ومعنى ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾: يتركُ البناتِ أحياءً للخِدْمةِ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أعـظـمُ جـرائـم فـرعـونَ تفريقُه بـيـنَ الـنّـاس بغرضِ الإفسادِ

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ حالَ فرعونَ في تجبُّرِه في أرضِ مصرَ، حيثُ جعلَ أهلَها منقسمينَ إلى فِرَقٍ وطوائفَ يُعادي بعضُها بعضًا، ويَكيدُ بعضُها لبعضٍ، وكانَ يستضعفُ طائفةً منهُم، وهم بنو إسرائيلَ، فيُذبِّحُ الذُّكورَ مِنْ أطفالِهم، ويُبقي الإناثَ منهُم على قيدِ الحياةِ؛ ليستعملَهُنَّ في الخِدْمةِ والبِغاءِ عندما يَكبُرْنَ، وإنَّما كانَ يفعلُ ذلكَ لكونِهِ موغلًا في الفسادِ، بالغًا فيهِ أقصى النِّهاياتِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 2.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).
(3) الرّاغب، المفردات: (طوف).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 2.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيي).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (حيي).
(7) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 627.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الاستئنافُ البيانيّ يُحرك الأذهان ويُعلِّل البيان

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّ هذه الجملةَ استئنافٌ تعليليٌّ جاءَ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، كأنَّهُ لمّا قيلَ: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ سألَ سائلٌ، فقالَ: وكيفَ كانَ نبؤُهما؟ فقيلَ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وهذا بمنزلةِ التَّفسيرِ للمُجمَلِ، وفيهِ إشعارٌ بعِظَمِ شأنِ النَّبأِ، وترسيخٌ لمضمونِهِ في النُّفوسِ؛ لِما فيهِ مِنَ العِبَرِ البالغةِ.

بلاغةُ التَّوكيدِ:

فسادُ فرعونَ جديرٌ بالذَّمِّ حقيقٌ باللَّوم

تصديرُ قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بحرفِ التَّأكيدِ؛ للاعتناءِ بتحقيقِ مضمونِهِ[2]، وإظهارِ الاهتمامِ بهِ[3]؛ فهو خبرٌ عظيمُ الشَّأنِ، فيهِ صورةٌ مِنْ صوَرِ الإفسادِ العظيمِ لطاغيةٍ مِنْ طُغاةِ التّاريخِ، وهي تستوجبُ الذَّمَّ والتَّقبيحَ وتنفيرَ النّاسِ منها، فكانَ التَّوكيدُ محقِّقًا لهذه المعاني، مناديًا على هذه الدّلالات.

سِرُّ الابتداءِ بذِكرِ فرعونَ:

المِحَنُ ملأى بالمِنَحِ والآلامُ بواعثُ الآمال

ابتدأَ النَّظمُ الكريمُ بذكرِ أفعالِ فرعونَ وجرائمِه، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مع أنَّ الآيةَ السّابقةَ ابتُدِئَ فيها بذكرِ موسى عليه السلام؛ وذلك لبيانِ أنَّ جرائمَ فرعونَ هي أبرزُ ما في القِصَّةِ من معاناةٍ سابقةٍ لإرسالِ موسى عليه السلام، وأنَّ اللهَ تعالى أرسلَه لإنقاذِ بني إسرائيلَ وغيرِهم من ظُلمِ فرعونَ وبَغْيِه واستعلائِه، ولتكونَ عِبْرةً للمؤمنينَ، ويتعلَّموا معرفةَ عِلَلِ الأشياءِ، وإدراكَ حِكَمِ اللهِ تعالى، ولا ييأسوا مِنْ رَوْحِ اللهِ وإنْ طالَ الظُّلمُ والبلاءُ، فلولا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 391، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 627.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 2، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 253.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 66.

تجبُّرُ فرعونَ ما حلَّ بهِ وبقومِهِ الاستئصالُ، وما خرجَ بنو إسرائيلَ مِنْ ذُلِّ العبوديَّةِ[1].

علَّةُ إظهارِ اسمِ ﴿فِرْعَوْنَ﴾:

فـرعـونُ قـدوةُ المتُجبِّرينَ وإمامُ المفُسدين

آثرَ النَّظمُ الكريم إظهارَ اسمِ فرعونَ دون الاكتفاء بالإضمار، فلم يقل: (إنَّهُ علا في الأرضِ)، وعدَلَ إلى الإظهارِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لزيادةِ تقبيحِ شأنِ فرعونَ، بذكرِهِ بلَقَبِهِ الَّذي عُرِفَ بهِ، وإسنادِ العُلوِّ المذمومِ إليهِ، ولتصبحَ الجملةُ مستقلَّةً جاريةً مَجْرَى الأمثالِ السّائرةِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي:

عُلوَّ فرعونَ أمرٌ مُتيقَّنٌ لا شكَّ في اتِّصافِهِ بهِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ وتعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ عُلوَّ فرعونَ قد تحقَّقَ، وهو أمرٌ مُتيقَّنٌ، لا شكَّ في اتِّصافِهِ بهِ، وثبتَ في صحائفِ الأيّامِ.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ العُلوِّ:

طلبُ العُلوِّ دليلُ الاستكبارِ وركنُ الطُّغيان

آثرَ النَّظمُ الكريم ذكرَ صفةِ العُلوِّ وتقديمَها في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على ما يُذكَرُ بعدَها مِنَ الجرائمِ؛ لأنَّها أمُّ المفاسدِ وأصلُها، وهي الغايةُ التي يسعى لها المفسدون، وما سواها بمنزلةِ الفرعِ أو التَّبَعِ، فالتَّكبُّرُ مفسدةٌ نفسيَّةٌ عظيمةٌ تتولَّدُ منها مفاسدُ كثيرةٌ، مِن احتقارِ النّاسِ، والاستخفافِ بحقوقِهم، وسوءِ معاشرتِهم، ونشرِ العداوةِ فيهم، فإذا انضمَّ إلى ذلكَ أنّه وليُّ أمرِهم وراعيهم كانت صفةُ الكبرِ مقتضيةً سوءَ رعايتِهِ لهم، والاجتراءَ على حقوقِهم، وأن يَرمُقَهم بعينِ الاحتقارِ، فلا يَعْبَأ بجَلْبِ الصّالحِ لهُم، ودفعِ الضُّرِّ عنهُم، بل يُسَخِّرُ مِن استطاعَ منهم لخدمةِ أغراضِهِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 68.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

امـتـلاءُ الأرضِ مِنْ عُلوِّ فرعونَ

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِه ﷻ: ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، فيفيدُ أنَّ مكانَ عُلوِّ فرعونَ هو الأرضُ، ولدلالةِ هذا الحرفِ على الاستغراقِ يومِئُ إلى أنَّ الأرضَ قدِ امتلأَتْ مِنْ عُلوِّ فرعونَ واستكبارِه.

دلالةُ الإيماءِ في تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

مَنْ علا في بعضِ الأرضِ فكأنَّما علا فيها جميعًا

المرادُ بـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قولِ الباري سبحانَهُ: ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرضُ مصرَ الَّتي هي مملكةُ فرعونَ، فالتَّعريفُ فيها للعهدِ بدليلِ المقامِ[1]، ونُكْتَةُ إطلاقِها - حيثُ لم يُقَلْ: (في أرضِ مصرَ) - الدّلالةُ على تعظيمِها، وأنَّها بمنزلةِ جميعِ الأرضِ في اشتمالِها على ما لا يشتملُ عليهِ غيرُها[2]، وتهويلُ شأنِ عُلوِّ فرعونَ، بالإشارةِ إلى أنَّهُ قد غمرَ أجزاءَ الأرضِ كافةً، ولم يَسْلَمْ منهُ جزءٌ منها، فإنَّه إمامٌ لأمثالِه من أبناءِ زمانه وغيرهم، فمَن علا في الأرضِ، كان قدوةً لغيرِه، ومن قتل نفسًا فكأنّما قتل النّاس جميعًا، وهذا هو شأنُ الطُّغاةِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

بلاغةُ القيدِ التَّهكميَّة:

شـعـورُ الانـحـطـاطِ مصاحبٌ لطالبِ العُلوِّ

قُيِّد عُلوُّ فرعونَ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بكونِهِ في الأرضِ؛ للتَّشنيعِ عليهِ، حيثُ استكبرَ وعلا في أسفلِ الأجرامِ، ومحلِّ التَّذلُّلِ والانخفاضِ[3]، وكانَ اللّائقُ بهِ أنْ ينظرَ إلى تسفُّلِ محلِّه، فلا يستكبرَ، فأفاد القيدُ التَّهكُّمَ به، إذ إنَّ العُلوَّ في الأرضِ سيبقى سُفليًّا، وهو ما يُشير إلى شعور فرعون نفسه بذلك الانحطاط حين قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 36 - 37].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 275.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 239.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 264.

بلاغةُ عطفِ فعلِ الجَعْل على فعل العُلوّ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وهو بمنزلةِ تفصيلٍ لهُ[1]، فتفريقُ النّاسِ أثرٌ مِنْ آثارِ عُلوِّ فرعونَ في الأرضِ، ونتيجةٌ مِنْ نتائجِهِ؛ لأنَّهُ دعامةٌ مِنْ دعائمِ تثبيتِ أركانِ مُلْكِهِ، هذا إذا كانَ المرادُ بالعُلوِّ ما يشملُ دعوى الأُلوهيَّةِ والظُّلمَ والتَّجبُّرَ ونحوَ ذلكَ كما هو الظّاهرُ، وإذا كانَ المرادُ بهِ دعوى الرُّبوبيَّةِ ونسيانَ العبوديَّةِ على وجهِ الخصوصِ؛ فالجَعْلُ غيرُ العُلوِّ، وعطفُهُ عليهِ ظاهرٌ[2]؛ لأنَّهما متغايرانِ، ونُكْتَةُ العطفِ: ذِكْرُ جرائمِ فرعونَ في حقِّ الخَلْقِ بعدَ ذِكْرِ جريمتِهِ في حقِّ الخالقِ، وهي ادِّعاءُ الأُلوهيَّةِ.

تفريقُ النّاسِ سبيلُ المستكبرين وأداةُ المتجبّرين لمحاربةِ المؤمنين

سِرُّ استعمالِ مفردةِ الجَعلِ دونَ التَّفريقِ:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ الجَعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، دون مفردةِ التّفريقِ، فلم يُقَلْ: (وفرَّقَ أهلَها شيَعًا)؛ لأنَّ الجعلَ أبلغُ في الدّلالةِ على تقبيحِ تفريقِ فرعونَ لأهلِ مصرَ؛ لأنَّ الجعلَ يأتي بمعنى التَّصييرِ، وتبديلِ صفةِ الشَّيءِ إلى صفةٍ أخرى، أو تحويلِ حقيقتِهِ إلى حقيقةٍ أخرى، كقولِكَ: (جعلتُ الخَشَبَ بابًا)، وفرعونُ قد بدَّلَ صفةَ أهلِ مصرَ، ونقلَها مِنَ الوئامِ والتَّعايشِ إلى التَّناحرِ والخِصامِ، وذلكَ جُرْمٌ عظيمٌ؛ لأنَّ التَّفريقَ بينَ النّاسِ شأنُ الشَّياطينِ ومَرَدةِ الجنِّ.

التَّفريقُ بين النّاسِ عملُ المفسدين من شياطين الإنس والجنِّ

إيماءُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ تفريقَ فرعونَ لأهلِ مصرَ وتشتيتَهُ لشملِهِمُ المجتمعِ أمرٌ ثابتٌ متحقِّقٌ، يسلُكُه كلُّ مقتفٍ أثرَه.

تفريقُ فرعونَ لأهلِ مصرَ أمرٌ ثابتٌ متحقّقٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 578.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.

بلاغةُ استعمالِ مفردة (الأهلِ) وإضافتِها إلى الضَّمير:

ملاءمةُ الإضافة وبيانُ اتِّساعِ رقعةِ الفرقة

استُعمِلَ لفظ الأهلُ دونَ الآلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾؛ لأنَّ الآلَ مخصوصٌ بالإضافةِ إلى الأعلام النّاطقينَ، ولا يُضافُ إلى النَّكراتِ، ولا إلى الأزمنةِ والأمكنةِ، يقالُ: آلُ فلانٍ، ولا يقالُ: آلُ رجلٍ، ولا آلُ زمانِ كذا، أو موضعِ كذا، ويُضافُ إلى الأشرفِ الأفضلِ، فيقالُ مثلًا: آلُ اللهِ، وآلُ السُّلطانِ، ولا يقالُ: آلُ الخيّاطِ، وأمّا الأهلُ فيُضافُ إلى الكلِّ، يقالُ: أهلُ اللهِ، وأهلُ الخيّاطِ، كما يقالُ: أهلُ زمنٍ كذا وبلدِ كذا[1]، وهنا الإضافةُ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى الأرضِ، فهي مِنْ مَحازِّ استعمالِ لفظِ الأهلِ، ونُكْتَةُ الإضافةِ الإشعارُ بأنَّ شَرَّ فرعونَ كانَ مُستطيرًا، حيثُ لم تَسْلَمْ منهُ الأرضُ، ولم يَسْلَمْ منهُ أصحابُها أيضًا، وهذا دَيْدَنُ المُتألِّهينَ المُتكبِّرينَ أنْ يملؤوا البَرَّ والبحرَ بالظُّلمِ والجَوْرِ والطُّغيانِ، فيَشقَى بهم الزَّمانُ والمكانُ وأهلُهما.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿شِيَعًا﴾ وغرضُ تنكيرِها:

تفريقُ النّاسِ شيَعًا قوّى فرعونَ حِقْبًا

نُكِّر لفظ ﴿شِيَعًا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ للتَّنويعِ؛ فيدلُّ على أنَّ فرعونَ قد فرَّقَ أهلَ مصرَ فِرَقًا مُتنوِّعةً مختلفةَ المذاهبِ، ومُتشعِّبةَ الآراءِ والمصالحِ؛ ليقعَ بينَها الجَدَلُ والخِصامُ، ويتسنَّى لهُ أنْ يُحكِمَ قبضتَهُ عليها جميعًا؛ إذِ اجتماعُها يُهدِّدُ مُلْكَهُ وسَطْوتَهُ، واختير لفظ ﴿شِيَعًا﴾ لأنَّ مشايعة النّاسِ بعضَهم لبعض قائمٌ على التَّناصرِ، بقطعِ النَّظرِ عنِ الحقِّ، وقد جرَتْ عادةُ الطُّغاةِ العملَ بسياسةِ (فرِّقْ تَسُدْ)، وهي في الأصلِ سياسةٌ شيطانيَّةٌ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يُغري بينَ النّاسِ العداوةَ والبغضاءَ.

بلاغةُ فنِّ الاحتباكِ:

دلالةُ العُلوِّ على السُّفولِ، والافتراقِ على الاجتماعِ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ فنٌّ

(1) الرّاغب، المفردات: (أل)، والنّزهيّ، الفروق اللّغويّة، ص: 29.

لطيفٌ مِنَ الحذفِ، وهو الاحتباكُ؛ لأنَّ ذِكرَ عُلوِّ فرعونَ أوَّلًا دليلٌ على سُفولِهِ ثانيًا، وذِكْرَ الافتراقِ ثانيًا دليلٌ على الاجتماعِ أوَّلًا[1].

أثرُ المعنى في توجيه إعراب الجُمَل:

تـنـوُّعُ دلالـةِ الجملةِ استئنافًا وحالًا ونعتًا تابعٌ لتأويل المعنى

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أنْ يكونَ استئنافًا[2]، والغرضُ منهُ بيانُ حالِ الأهلِ الَّذينَ جعلَهم فرعونُ فِرَقًا[3]، والأحسنُ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا جوابًا لسؤالٍ تقديرُهُ: ما فعلَ بأهلِ مصرَ بعدَ تفريقِهم؟ فأُجيبَ بأنَّهُ كانَ يستضعفُ طائفةً منهُم، وهم بنو إسرائيلَ، وهذا الاستئنافُ نوعٌ مِنْ أنواعِ الرَّبطِ الخفيِّ بينَ الجملِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ حالًا مِنَ ضميرِ الفاعلِ في ﴿وَجَعَلَ﴾[4]، والمعنى: جعلَ فرعونُ أهلَ تلكَ الأرضِ فِرَقًا مُستضعِفًا طائفةً منهُم[5]، فيُفيدُ الكلامُ أنَّ الاستضعافَ كانَ مُقترنًا بالتَّفريقِ؛ لأنَّهُ ثمرتُهُ المرجوَّةُ منهُ.

ويحتملُ أنْ يكونَ صفةَ ﴿شِيَعًا﴾[6]، والمعنى: جعلَهم شيَعًا مُستضعَفةً طائفة منهم[7]، وفي هذا الوصفِ تقبيحٌ لحالِ التَّفريقِ، وحالِ الشِّيَعِ الَّتي رَضيَتْ باستضعافِ طائفةٍ منها، ولو اجتمعَتْ هذهِ الشِّيَعُ ما استطاعَ فرعونُ استضعافَ طائفةٍ منها.

بلاغةُ صيغةِ الاستفعالِ:

من شأنِ الخوفِ تـوريـثُ الحِقدِ وإثمارُ الكيد

جيءَ بصيغةِ الاستفعالِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾؛ للدّلالةِ على شدَّةِ حرصِ فرعونَ على استضعافِ بني إسرائيلَ، أي: جَعْلِهم ضُعَفاءَ مقهورينَ؛ لأنَّ هذهِ الصّيغةَ تدلُّ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 240.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 649.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.
(5) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.
(7) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.

تطلُّبِ الشَّيءِ وتكلُّفِه[1]، والإنسانُ إذا طلبَ شيئًا حَرِصَ على أنْ يكونَ في غايةِ الكمالِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على حِقْدِ فرعونَ الشَّديدِ على بني إسرائيلَ؛ لخوفِهِ مِنْ زوالِ مُلْكِهِ على أيديهِم.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

حكايةُ حالِ الاستضعافِ والإيماءُ إلى تجدُّدِه

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (استضعفَ طائفةً منهُم)؛ ملاءمةً للأفعالِ السّابقة، ولأنَّ الاستضعافَ فعلٌ قد مضَى وانقضَى، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى صيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ[2] واستحضارِها، وكأنَّها تُشاهَدُ وهي تقعُ الآنَ، وغرضُ ذلك التَّعجيبُ مِنْ شأنِها وتهويلُهُ؛ لأنَّها حالٌ عظيمةُ الشَّأنِ، فيها مِنَ الشَّناعةِ والقُبْحِ والظُّلمِ ما لا يرضَى بهِ عاقلٌ، وفيها تشخيصٌ لبَطْشِ فرعونَ الَّذي استحقَّ بسببِهِ الهلاكَ وزوالَ المُلْكِ، وللإيماءِ إلى أنَّ هذا الاستضعافَ متجدِّدٌ في أذنابه وأتباعه إلى يوم الدّين.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة الاستضعاف دونَ الاستقواء:

الاستضعافُ سلبُ إمكاناتِ القوّي لجعله فارغَ المضمون

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ دون أن يقول: (يستقوي على طائفة)، وهو قد استقوى على بني إسرائيل؛ لبيانِ أنَّ غرضَه إفراغُ بني إسرائيل من قوّتهم، وتركهم هملًا لا يملكون مقوِّمات الوجود والبقاء، بحيثُ يستبقيهم ضعفاءَ لتحقيقِ أغراضه، ومنعِهم منَ الانطلاقة من جديد.

غرضُ تنكيرِ ﴿طَآئِفَةً﴾:

الإشارةُ إلى بني إسرائيلَ وحدَهم

جاء تنكيرُ لفظِ ﴿طَآئِفَةً﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ للإفرادِ؛ أي: فردًا مِنْ أفرادِ الطَّوائفِ المُتفرِّقةِ في مصرَ في زمنِ فرعونَ، والمرادُ بها طائفةٌ مُعيَّنةٌ، وهم بنو إسرائيلَ، كما دلَّ على ذلكَ القرآنُ الكريمُ في مواضعَ عديدةٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 240، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 61، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 253.

توجيهُ مرجعِ الضَّميرِ:

عَدُّ بني إسرائيلَ مِـنْ أهـلِ مصرَ تغليبٌ لا تحقيق

ضميرُ ﴿مِّنْهُمْ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ راجعٌ إلى ﴿أَهْلَهَا﴾، لا إلى ﴿شِيَعًا﴾[1]، وإلّا لقيلَ: (منها) بدلَ ﴿مِّنْهُمْ﴾، وعَدُّ بني إسرائيلَ مِنْ أهلِ مصرَ تغليبٌ، أو لأنَّهم كانوا بها[2]، فالإضافةُ لأدنى ملابسةٍ.

عِلَّةُ فصلِ جملةِ ﴿يُذَبِّحُ﴾:

تـنـوُّعُ دلالـةِ الـجـمـلـةِ بـدلًا وحالًا واستئنافًا

فُصِلَتْ جملةُ ﴿يُذَبِّحُ﴾ عمّا قبلَها؛ لِما بينَهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ جملةَ ﴿يُذَبِّحُ﴾ بدلٌ مِنْ جملةِ ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾[3] بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ الاستضعافَ مُشتمِلٌ على التَّذبيحِ والاستحياءِ معًا. ويصحُّ أنْ تكونَ الجملةُ مستأنفةً تفسيرًا لـ ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾[4]، وهو استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا لسؤالٍ تقديرُهُ: ما وجهُ استضعافِهِ لهُم؟ فيكونُ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ. ويصحُّ أنْ تكونَ حالًا مِنْ فاعلِ ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾[5]، أي: يستضعفُ طائفةً منهُم مُذبِّحًا أبناءَهم، والجملةُ الحاليَّةُ إذا كانَتْ مضارعًا مُثبَتًا امتنعَ فيها الواوُ[6].

فهذه ثلاثةُ توجيهاتٍ لفصلِ جملةِ ﴿يُذَبِّحُ﴾ عن جملةِ ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾، وأَوْلاها أنَّها بدلٌ؛ وذلك أنَّ الاستضعافَ لم يقتصر على التَّذبيحِ، بل له صورٌ ووسائل كثيرة، أحدُها التَّذبيح.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

تُسندُ الأفعـالُ إلـى الآمِـريـن، ويـتـولّى كـبرَها جميعُ المجرمين

أُسند فعلُ التَّذبيحِ إلى فرعونَ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ على سبيلِ المجازِ العقليّ؛ لأنَّ التَّذبيحَ في الحقيقةِ هو فعلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 68.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 61.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 650.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 650.
(6) التّفتازانيّ، المختصر، ص: 432.

جنودِهِ وأعوانِهِ، لكنْ أُسنِدَ إليهِ لكونِهِ الآمرَ بهِ[1]، وفي هذا الإسنادِ زيادةُ تشنيعٍ عليهِ، كأنَّهُ تولّاهُ بنفسِهِ على كثرةِ المذبوحينَ.

بلاغةُ صيغةِ التَّفعيلِ:

الإسـرافُ في الـذَبـحِ كاشفٌ عن حقدٍ وخوفٍ

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ التَّفعيلِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ مبالغةِ فرعونَ في الذَّبْحِ، وحِرصِهِ عليهِ، وتكرارِهِ لهُ، وقتلِهِ الكثيرَ مِنْ أبناءِ بني إسرائيلَ، أي: يُذبِّحُ تذبيحًا كثيرًا؛ خوفًا على مُلْكِهِ[2]، وفي ذلكَ كشفٌ عن حِقْدٍ أسودَ كانَ يملأُ قلبَ فرعونَ، ويمنعُهُ مِنْ أنْ يَرِقَّ للأطفالِ، مع خوفٍ شديدٍ أن يكون منهم من ينزع مُلكَه، ولو ذبحَ طفلًا واحدًا لكانَتْ جريمةً شنيعةً، فكيفَ وقد ذبحَ الكثيرَ؟!

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

قـتـل الأطـفـال قـمَّـةُ الـتَّـجـبُّرِ والطُّغيان

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (ذبَّحَ أبناءَهم)؛ لأنَّ التَّذبيحَ قد مضَى، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى صيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ[3]، واستحضارِها، وكأنَّها تُشاهَدُ وهي تقعُ الآنَ، وغرضُ ذلكَ تهويلُ تذبيحِ الأبناءِ، واستدعاءُ الإنكارِ عليهِ؛ لأنَّهُ جريمةٌ شنيعةٌ مُنكَرةٌ، لا يَرضَى بها عاقلٌ سَويُّ الفِطْرةِ، ولا يفعلُها إلّا مَنْ أشبهَ الضَّواريَ مِنَ البهائمِ الَّتي تأكلُ صِغارَ غيرِها، ولا تَرِقُّ لهُم قلوبُها.

فائدةُ استعمالِ لفظِ الأبناءِ دونَ الأولادِ:

اخـتـصـاصُ القتلِ بالذُّكورِ والاستـحـيـاء بالبنات

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الأبناءِ دونَ الأولادِ في قولِهِ تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ لأنَّ لفظَ الأبناءِ يُطلَقُ على الذُّكورِ فقطْ، ولفظُ الأولادِ يُطلَقُ على الذُّكورِ والإناثِ[4]، والمرادُ هنا الذُّكورُ مِنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 69.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 276، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 240.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.
(4) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 44.

الأطفالِ؛ لأنَّ فرعونَ كانَ يقتلُهم دونَ النِّساءِ، وقَصْدُ فرعونَ مِنْ قتلِهم ألّا تكونَ لبني إسرائيلَ قوَّةٌ مِنْ رجالِ قبيلتِهم، حتَّى يكونَ النُّفوذُ والكِبْرياءُ في الأرضِ لقومِهِ خاصَّةً[1].

سِرُّ العدولِ عن (أبناءَها) إلى ﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾:

رعايةُ التَّناغمِ الصَّوتيِّ في ألفاظِ الآيةِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (يُذبِّحُ أبناءَها) برجعِ الضَّميرِ إلى الطّائفةِ باعتبارِ اللَّفظِ، لكنْ قيلَ: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ برجعِ الضَّميرِ إلى الطّائفةِ باعتبارِ المعنى؛ إذ الطّائفةُ مجموعةٌ مِنَ الأفرادِ، وفي التَّعبيرِ بـ ﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾ موافقةٌ لقولِهِ: ﴿مِّنْهُمْ﴾ وتناغمٌ صوتيٌّ معَهُ، ومع ﴿نِسَآءَهُمْ﴾.

عِلَّةُ تقديمِ لفظِ التَّذبيحِ على لفظِ الاستحياءِ:

تقديمُ الغايةِ الكبرى وهي ذبحُ المُنقِذِ لبني إسرائيل

قُدِّمَ ذِكرُ التَّذبيحُ على الاستحياءِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾؛ لأنَّهُ أصعبُ الأمورِ وأشقُّها عندَ النّاسِ؛ لِما فيهِ مِنْ إزهاقِ الرّوحِ، وإنْ كانَ استحياءُ النِّساءِ لأجلِ الخِدْمةِ والافتراشِ أعظمَ مِنَ القتلِ لدى أهلِ الغيرةِ[2]، ولأنَّ الغايةَ مِنَ الاستضعافِ والتَّهميشِ هو قتلُ الأبناءِ، فهو الغايةُ الكبرى المانعة من ولادة المُنقِذ لبني إسرائيل.

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ الاستفعالِ:

بيانُ شدَّةِ حرصِ فرعونَ على حياةِ النِّساءِ

جيءَ بصيغةِ الاستفعالِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾؛ لدلالةِ هذهِ الصّيغةِ على طلبِ فرعونَ لحياةِ نساءِ بني إسرائيلَ[3]، وتكلُّفِهِ في هذا الطَّلبِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى شِدَّةِ حرصِهِ على استحيائِهنَّ؛ لِما لهُ في هذا الاستحياءِ مِنَ المصلحةِ، وهي استخدامُهُنَّ.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ الاستحياءِ:

الكنايةُ عن استحياءٍ خاصٍّ غرضُه الاعتداءُ على أعراضِ النِّساءِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ الاستحياءِ في قولِه تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 69.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/ 163.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.

﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ ومعناهُ: يُبقيهنَّ أحياءً، وهذا في ظاهرِهِ عفوٌ وتركٌ للعقابِ، لكنَّهُ في الحقيقةِ عقابٌ شديدٌ؛ لأنَّ بقاءَ النِّساءِ بدونِ الذُّكورِ يوجِبُ صيرورتَهُنَّ مُستفرَشاتٍ للأعداءِ، فيكونُ المَقصدُ مِنْ هذا الاستحياءِ خبيثًا، وهو الاعتداءُ على أعراضِهنَّ، وليسَ لهُنَّ بدٌّ مِنَ الإجابةِ بحُكمِ الاسترقاقِ، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ كنايةً عن استحياءٍ خاصٍّ[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

تصويرُ أخلاقِ فرعونَ الخالية مِنَ المروءة مع إجرامه

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ معَ أنَّ الاستحياءَ قد مضَى؛ لحكايةِ حالٍ ماضيةٍ، واستحضارِها لتهويلِ شأنِها؛ فهي حالةٌ مُستنكَرةٌ مُستبشَعةٌ، تُظهِرُ أنَّ فرعونَ باستحيائِهِ لنساءِ بني إسرائيلَ لا يعبأُ بأخلاقٍ أو مروءةٍ، وليسَ لهُ همٌّ إلّا إرضاءَ شهواتِهِ وأهوائِهِ، وهذا شأنُ أهلِ الطُّغيانِ؛ فهم كالبهائمِ الَّتي تُحرِّكُها غرائزُها، وليسَ للعقلِ والأخلاقِ والمروءةِ عليها سلطانٌ.

فنُّ بديعِ الطِّباقِ:

جمعُ الصّور المتقابلةِ يُصوِّر حقائقَ الأفعال ويُدني حقائقَ الرِّجال

في الجمعِ بينَ فعلي التَّذبيحِ والاستحياءِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ رِعايةٌ للطِّباقِ، وهو مِنَ المُحسِّناتِ المعنويَّةِ، فيكونُ القارئُ - بمعونةِ المضارعِ المفيدِ تصويرَ الحالِ الماضيةِ - أمامَ صورتينِ متضادَّتينِ؛ إحداهما: صورةٌ بَشِعةٌ للموتِ، وهي صورةُ تذبيحِ الأطفالِ الذُّكورِ. والأُخرى: صورةٌ للحياةِ، ظاهرُها رِقَّةٌ ورحمةٌ، وباطنُها مَقصِدٌ خبيثٌ، وهي صورةُ استحياءِ الإناثِ مِنَ الأطفالِ، ولا يخفَى ما في ذلكَ مِنْ إظهارِ قُبْحِ جَبَروتِ فرعونَ، ودناءةِ نفسِهِ الخبيثةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 492 - 493.

بلاغةُ المجازِ في إطلاقِ لفظِ النِّساءِ وإرادةِ البناتِ:

الكشفُ عن مقصودِ الاستحياءِ في وظيفة الفاحشة

المرادُ بالنِّساءِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾ الإناثُ مِنَ الأطفالِ، وقد أُطلِقَ عليهنَّ اسمُ النِّساءِ باعتبارِ المآلِ على سبيلِ المجازِ المُرسَلِ؛ إيماءً إلى أنَّ فرعونَ كانَ يستحييهنَّ ليَصِرْنَ نساءً، ويَحملَهنَّ على أنْ يَصِرْنَ بغايا؛ إذ ليسَ لهنَّ أزواجٌ، ولأنَّ احتقارَهنَّ كانَ يصدُّ قومَهُ عنِ التَّزوُّجِ بهنَّ، فلم يبقَ لهنَّ حظٌّ مِنْ رجالِ القومِ إلّا قضاءَ الشَّهوةِ[1].

علَّةُ فصلِ جملةِ الفاصلة:

الباعثُ على التَّذبيحِ والاستحياءِ الإفسادُ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ استئنافٌ تعليليٌّ جاء جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، تقديرُهُ: لمَ كانَ يفعلُ التَّذبيحَ والاستحياءَ؟ فأُجيبَ: بأنَّهُ كانَ يفعلُ ذلكَ لمُجرَّدِ الفسادِ في الأرضِ[2]، وأخبثُ النُّفوسِ مَنْ كانَ الفسادُ همَّها ووُكْدَها. ويحتملُ أنْ تكونَ الجملةُ تعليلًا لجملةِ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]، فيكونُ ما فيهِ مِنْ نزعةِ الفسادِ هو الحاملَ لهُ على العُلوِّ.

بلاغةُ التَّأكيدِ ودلالتُه:

إفسادُ فرعونَ عنوانُ المجرمين وإلهامُ المتكبِّرين

صُدِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بحرفِ التَّأكيدِ؛ لإظهارِ الاهتمامِ بمضمونِهِ، وهو التَّسجيلُ على فرعونَ بأنَّهُ كانَ مِنْ جملةِ المفسدينَ في الأرضِ، بل هو مِنْ رؤوسِهم، ولأنَّهُ لمّا ذُكِرَتْ أفعالُهُ القبيحةُ، وهي تذبيحُ الذُّكورِ مِنَ الأطفالِ، واستحياءُ الإناثِ منهُم، وربَّما يظنُّ ظانٌّ خفيفُ العقلِ أنَّ لهُ عُذرًا في ذلكَ - جيءَ بالكلامِ مُؤكَّدًا؛ لبيانِ أنَّ كونَ فعلِهِ مِنَ الإفسادِ ممّا لا ينبغي أنْ يُشَكَّ فيهِ، أو يُبحثَ لهُ عن وجهِ صلاحٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 69.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 286.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 68.

نُكْتَةُ ذكرِ فعلِ الكونِ:

لفرعونَ قَدَمُ سبقٍ في الإفسادِ

جيءَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بفعلِ الكونِ الدّالِّ على تمكُّنِ الخبرِ مِنَ الاسمِ[1]، وعُبِّرَ عنهُ بصيغةِ الماضي؛ للدّلالةِ على الرُّسوخِ، وأنَّ لفرعونَ صُحْبَةً قديمةً معَ الفسادِ، أي: كانَ مِنَ المفسدينَ كونًا هو في غايةِ الرُّسوخِ؛ لأنَّ أفعالَهُ المحكيَّةَ عنهُ في غايةِ الشَّناعةِ والبشاعةِ، وهو لم يكنْ مأمورًا بها مِنْ جهةِ شرعٍ ما، ولا لها فائدةٌ أصلًا[2]، إنَّما هي أعراضُ مَرَضٍ نفسيٍّ هو الكِبْرُ والبغيُ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

فرعونُ بعضُ المفسدينَ ومنتظمٌ في زمرتهم

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ للتَّبعيضِ، والمعنى: إنَّهُ كانَ بعضَ المفسدينَ، ومُنتظِمًا في سِلْكِهم وزُمْرتِهم وطائفتِهم الَّتي هي شرُّ الطَّوائفِ.

نُكْتَةُ الجمعِ دون الإفرادِ:

الإفسادُ مُتمكِّنٌ مِنْ فرعونَ غارقٌ فيه

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أبلغُ مِنْ أنْ يقالَ: (إنَّهُ كانَ مُفسدًا)؛ لإفادتِهِ المبالغةَ في اتِّصافِ فرعونَ بالإفسادِ؛ إذِ المعنى: إنَّهُ كانَ مِنَ الفئةِ الَّتي تُعرَفُ عندَ النّاسِ بفئةِ المُفسِدينَ، وإذا كانَ منها فهو مُفسِدٌ، وذلكَ مِنْ قبيلِ الكناياتِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِهِ، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ، ويضافُ إلى ذلكَ أنَّ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

شِدَّةُ الإفسادِ قرينُ الهلاكِ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ فرعونَ مِنَ الكاملينَ الرّاسخينَ في الفسادِ[3]، الَّذينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 68.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 241.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 8.

لهم عَراقةٌ وتمكُّنٌ في هذا الوصفِ[1]؛ لأنَّ فسادَهُ فسادٌ صِرْفٌ، ولذلكَ اجترأَ على تلكَ الأفعالِ العظيمةِ الشَّنيعةِ[2].

سِرُّ ذِكْرِ صفةِ الإفساد دونَ الإجرام:

غـايـةُ المجرمين نشرُ الإفسادِ في الأرض

عند النَّظر في الأفعال المذكورة، وهي: العُلوُّ في الأرضِ، وجَعْلُ أهلِها شيَعًا، واستضعافُ طائفةٍ منَ النّاس، والتَّذبيحُ والاستحياء، نجدها أقربَ إلى أن توصَف بالإجرام، لا بالإفساد، فيُسأل عن سِرِّ اختيارِ النَّظم لفظَ الإفساد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؟ والجواب: أنَّ الإجرام وسيلةٌ من وسائل الإفساد، والفساد غايةٌ مقصودة، فذَكَر الغايةَ باعتبارها العنوانَ الرّئيس لعمل فرعون، وأشار إلى الإجرام بأفعاله؛ فجمعَ النَّظمُ بينَ الإشارةِ إلى الإجرام بذِكر أشهر أفعالِه الدّالّة عليه، والتّصريح بالإفساد؛ للتَّنبيه على الغاية التي يسعى لها المجرمون، وهي الإفساد في الأرض.

غرضُ حذفِ مُتعلَّقِ اسمِ الفاعل:

فـسـادُ فـرعـونَ مُـتـجـاوِزٌ حـدودَ المكانِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (إنَّهُ كانَ مِنَ المفسدينَ في الأرضِ)، أي: في أرضِ مصرَ، لكن استُغْنِيَ عن هذا القيدِ بما تقدَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إيجازًا، ورعايةً لتلاؤمِ الفواصلِ، وإيهامًا أنَّ فسادَهُ مُطلَقٌ لا يتعلَّقُ بمكانٍ دونَ آخرَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العُلوّ والرِّفعة:

العُلوُّ يدلُّ على شِـدَّةِ شكيمةِ فرعونَ في الكِبْرِ والطُّغيانِ

الرِّفعةُ والعُلوُّ كلاهما يدلُّ على الفَوْقيَّة، ولكنْ كَثُرَ في القرآنِ استعمالُ العُلوِّ في التَّكبُّرِ، وعَدِّ الإنسانِ نفسَهُ عاليًا على غيرِهِ، كما في قولِهِ تعالى عن فرعونَ وقومِهِ: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون: 46]. وقدِ استُعمِلَ العُلوُّ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 241.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 2.

فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لتقبيحِ شأنِ فرعونَ بالتَّنصيصِ على أنَّهُ قد طغَى في الأرضِ، وجاوزَ الحَدَّ في الظُّلمِ[1]، وأخذَ الكِبْرُ بزِمامِ عقلِهِ، واستعلَى على غيرِهِ، كأنَّما ينظرُ إلى الأرضِ وهي تحتَ قدميهِ، وهو في مكانٍ مرتفعٍ، ليسَ يُساويهِ أحدٌ، ولمّا كانَ على هذا الوصفِ لم يَعْبَأْ في تصرُّفاتِهِ بقصدِ صلاحٍ وتجنُّبِ فسادٍ، وإنَّما كانَ يتَّبعُ ما يدعوهُ إليهِ هواهُ، وحَسْبُكَ أنَّهُ كانَ يجعلُ نفسَهُ إلهًا، ويزعمُ أنَّهُ ابنُ الشَّمسِ[2].

الشّيعة والطّائفة:

الشّيعةُ أنسبُ بسياقِ التّناحرِ، والطّائفةُ أنسبُ بسياقِ استضعافِ جميعِ الأفرادِ

الشّيعةُ: الجماعةُ الَّتي تشايعُ غيرَها على ما يريدُ، أي: تطيعُهُ وتنصرُهُ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ﴾ [القصص: 15]، وأُطلِقَ على الفِرْقةِ مِنَ النّاسِ على سبيلِ التَّوسُّعِ بعلاقةِ الإطلاقِ عنِ التَّقييدِ[3]، والطّائفةُ: الجماعةُ مِنَ النّاسِ[4]. وقد اختيرَ لفظُ الشّيَعِ – وهو جمعُ شيعةٍ – في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾؛ ليَدُلَّ على أنَّ فرعونَ جعلَ أهلَ مصرَ فِرَقًا متنازعةً، تتشيَّعُ كلُّ فِرْقةٍ إليهِ، وتُعادي الفِرْقةَ الأخرى؛ ليضربَ بعضَهم ببعضٍ، ويأمنَ اجتماعَهم عليهِ[5]. واختيرَ لفظُ الطّائفةِ في قولِهِ: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهُ استضعفَ فريقًا كاملًا، ولم يكن الاستضعافُ جاريًا على أشخاصٍ مُعيَّنينَ لأسبابٍ تقتضي ذلك؛ ككونِهم ساعينَ بالفسادِ، بل جرَى استضعافُهُ على اعتبارِ العنصريَّةِ والقَبَليَّةِ دونَ تمييزٍ بينَ مُستحِقٍّ للشِّدَّةِ وغيرِهِ[6].

الذَّبْح والقتل:

القتلُ أعمُّ منَ التَّذبيحِ

الفرقُ بينَ الذَّبْحِ والقتلِ: أنَّ القتلَ أعمُّ؛ لأنَّهُ صوَرٌ مختلفةٌ، منها

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 66.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 67.
(4) الرّاغب، المفردات: (طوف).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 67، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10871.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 69.

الذَّبْحُ[1]، وهو شَقُّ الحَلْقِ[2]. وقدِ اختيرَ التَّذبيحُ في قولِهِ تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ لأنَّهُ أكثرُ بشاعةً، وأدعَى للإنكارِ؛ ووقوعُهُ على الأطفالِ جريمةٌ لا تُدانيها جريمةٌ، ووقوعُهُ مِنْ فرعونَ يدلُّ على أنَّ قتلَ الأطفالِ مِنْ أجلِ المُلْكِ شريعةٌ فرعونيَّةٌ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 104.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذبح).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»